في معاني الحرب الاخيرة وحدودها

في عام ١٩٦٧ حققت اسرائيل انتصارا عسكريا ساحقا وضع حدا بين مرحلتين في تاريخ المنطقة العربية : مرحلة ماقبل حزيران ، ومرحلة مابعد حزيران بنتيجة الحد الفاصل بين المرحلتين تغيرت معالم السياسة والجغرافيا : سقطت سيناء المصرية والجولان السورية وكل ماتبقى من فلسطين عام ١٩٤٨ . كما ان الناصرية التيار السائد في الحركة القومية العربية خلال عقد الستينات دخلت مع غروب شمس الخامس من حزيران مرحلة غروبها التاريخي .

في عام ١٩٨٢ حققت «اسرائيل» انتصارا عسكريا مكلفا جدا وضع حدا بين مرحلتين في تاريخ المنطقة العربية : مرحلة ما قبل حزيران ومرحلة مابعد حزيران الجديد ، وعلى اساس الحد الفاصل بين المرحلتين تغيرت ايضا معالم السياسة والجغرافيا : وصل الاحتلال الاسرائيلي الى حدود بيروت ، وخرجت قيادة م . ت . ف وقواتها من لبنان ماعدا الشمال والبقاع .

وما من مرحلة في تاريخ اي مجموعة بشرية الا وتنمو في رحم مرحلة سابقة تحتضن بذورها وتقدم لمقوماتها اسباب الحياة . وللوهلة الاولى يبدو وكان اسرائيل وحدها تصنع تاريخ المنطقة : تبدا المراحل بارادة العنف العسكري وتنتهي بها .

كانت هزيمة حزيران ١٩٦٧ صدمة للعقل العربي ونهاية لمرحلة الستينات : مرحلة الفكر التحديثي التنموي والوحدة القومية والاشتراكية العربية .. الخ . وكان رحيل المقاتلين الفلسطينيين عبر البحر نهاية لمرحلة مابعد حزيران : مرحلة الانكفاء القومي وسيادة النزعة الاقليمية ، مرحلة تعزيز سلطة الدولة المركزية وجهازها القمعي وانفصال الدولة عن الشعب ، وانتفاء الديمقراطية ، وتعرض وحدة الدولة .. الاقليم الى خطر التفتت بفعل الصراعات الطائفية وتنامي الاتجاهات الرجعية والسلفية ، ومرحلة الثروة النفطية الهائلة والنزوع الاستهلاكي وافلاس مشاريع التنمية .

واذا كان الفلسطينيون قد سددوا القسم الاكبر من الفواتير التي تراكمت على ظهر العرب منذ حزيران القديم حتى الحرب في لبنان فمما لاشك فيه ان الحرب الاخيرة ونتائجها طرحت على العرب فواتير جديدة ، ويبدو اوان تسديدها مبكرا هذه المرة ، كما ان تراكمها يبدو مؤكدا . ووصول المراحل الى حدودها وان تكن قسرية ، لايعني ان الخط التراجعي للمظاهر التي سادت خلالها سينتهي ، بل من المؤكد انه سيتعزز .

يقال هذه الايام ان الفلسطينيين خاضوا اطول الحروب مع « اسرائيل» وانها الحرب الفلسطينية الاسرائيلية الاولى . وبقدر مايبدو هذا القول صحيحا الا انه يحمل قدرا كبيرا من الاوهام ، لان اسرائيل شنت حربها على كل الدول العربية وفي الوقت الذي كانت قواتها تحاصر بيروت ، فقد كان ذلك حصارا للعواصم العربية من اجل فرض الشروط الاسرائيلية . كانت م . ت . ف في حزيران ١٩٨٢ في موقع عبد الناصر في حزيران ١٩٦٧ كان تحطيم عبد الناصر يعني دق اسفين الانهيار في جسد المنطقة العربية وكانت محاولة تحطيم عبد الناصر الزعيم الشعبي الراديكالي الذي تتخطى زعامته حدود مصر وكانت محاولة تحطيم م . ت . ف من اجل تكريس ذلك الانهيار الان م . ت ف هي القوة الراديكالية الوحيدة ذات الجذور الشعبية الحقيقية في المنطقة العربية ، وقد حافظت على تماسكها السياسي والتنظيمي في ظل التراجع العربي العام ، واستطاعت في السنوات الاخيرة ان تمارس دورا قياديا في سياسات المنطقة اضافة لا للتناقض بين م . ت . ف « واسرائيل» من جذور عميقة بطبيعة الحال . هذه الاسباب مجتمعة هي التي وضعت م . ت . ف في قوهة المدفع» . ومن المفارقات التاريخية ان اول حروب الفلسطينيين كانت دفاعا عن العرب ، لكن العرب لم يهبوا لنجدتهم .

ان الشروط الاسرائيلية لاتنحصر في اخراج م . ت ف من لبنان ولا في معاهدة صلح مع لبنان ، انها تتجاوز ذلك بكثير . وكان الدكتور برهان الدجاني قد نشر سلسلة من المقالات في صحيفة «القبس» الكويتية قبل عامين ، اشار فيها الى طبيعة المخططات الاقتصادية الاسرائيلية بعد كامب ديفيد . ويبدو ان مقالات الدكتور دجاني اضافة الى عدد قليل من الدراسات الجادة لمرحلة مابعد ١٩٦٧ تكتسب اهمية بالغة بمرور الزمن .

اشار الدكتور دجاني الى ان لدى « اسرائيل» خطط جاهزة لنقل النفط السعودي عبر الموانىء الاسرائيلية ، كما اشار الى وجود تصور اسرائيلي متكامل لانشاء سوق شرق اوسطية تلعب فيها « اسرائيل» دورا قياديا ، واشار كذلك الى مخطط استعمار صحراء النقب الامر الذي سيتيح للاسرائيليين في حال نجاحه جلب حوالي ٥ ملايين مستوطن جديد واسكانهم في النقب ، وتطرق في هذا السياق الى محاولات جر مياه النيل الى النقب وكذلك قناة البحرين ومياه الليطاني .

لقد وصل الاقتصاد الاسرائيلي الى درجة عالية جدا من التمركز خلال عقد السبعينات ، وازداد انخراط القطاعات الانتاجية في العمليات الانتاجية التي تتطلب تخصصا عاليا وتعتمد على قدرات تكنولوجية متقدمة وتحديدا في مجال الصناعات الالكترونية والصناعات الحربية ويبدو ان الاداء التي اعتبرت اسرائيل» كامبريالية فرعية قبل سنوات قليلة تكتسب مع بداية عقد الثمانينات مصداقية اعلى . بموازاة التقدم العلمي والتكنولوجي ، فان انصهار الطوائف اليهودية المختلفة في بوتقة واحدة ، وتنامي دور الجيش في الحياة الاجتماعية و «ديمقراطية» المجتمع الصهيوني المتمثلة في تعدد الاحزاب وفي عدم استخدام القمع ضد اليهود مما يؤدي الى اطلاق حرياتهم الشخصية ويطور من قدرتهم على الابداع اضافة الى الطبيعة العدوانية التوسعية للصهيونية ذلك كله يضع « اسرائيل» في موقع الدولة الاكثر تقدما في المنطقة ويدفع بها بالتالي الى محاولة ممارسة دور القوة الاقليمية المسيطرة وهذا ينسجم مع الهدف الذي نشات من اجله « اسرائيل» ومع مصلحة الولايات المتحدة في المنطقة .

ان منطق السياسة والجغرافيا يفترض ان تمارس الدولة الاقوى دور القوة المسيطرة في اي منطقة من العالم وحتى في حالة السلم فان السيطرة الاقليمية تتخذ اشكالا متنوعة اقتصادية وثقافية وتزداد ضرورة السيطرة كلما كانت درجة العداء بين الدولة وجيرانها عالية وكبيرة . وهكذا يبدو من نافل القول مناقشة لماذا تريد اسرائيل ممارسة دور القوة الاقليمية في المنطقة العربية على وجه التخصيص وفي الشرق الاوسط بشكل عام .

ومقابل الصورة المتقدمة والعدوانية « لاسرائيل» فان جيرانها يملكون اهم ثروات العصر النفط والماء اضافة الى الحجم الهائل للارض وللمجالات البحرية والجوية والعدد الضخم من الايدي العاملة ..

وليس من مبرر اخلاقي يحول بين « اسرائيل» وتحقيق اهدافها من اجل السيطرة الاقليمية ، وليس هذا مهما على صعيد الحقيقة فان اجهزة الاعلام ترده صباح مساء ، المهم جدا ان « اسرائيل» بعد ضرب المفاعل النووي العراقي واجتياح لبنان بدات فعلا عصر السيطرة الاقليمية وهذا هو المدخل الاول والحقيقي لفهم حدود الحرب الاخيرة في لبنان .

ومن اجل السيطرة الاقليمية فان نفط الخليج مهدد بنفس الدرجة التي يتعرض فيها جنوب لبنان للخطر ، اما الفارق فيرجع الى عوامل الجغرافيا والتخطيط المرحلي وليس اكثر .

ومقابل هذا النزوع الى السيطرة فان صورة العالم العربي تبدو الان في اشد اشكالها قتامة منذ مطلع القرن ويكاد كل شعب يعاني من فلسطينية الخاصة سواء التي خلقتها النظم القمعية او التي ظهرت على السطح فجاة كالبثور على الجلد بعد ان كانت كامنة هناك ربما لقرون عديدة واتاح لها وضع الانهيار العام ان تعلن عن نفسها .

وليس سوى الحرب الاخيرة من صورة صادقة للوضع العربي الاخير ، كانت البعض ينظر الى كيفية الاستفادة من هزيمة الفلسطينيين ، والبعض يعتذر عن عدم المشاركة بمشاكله الخاصة والبعض يصمت صمت القبور والبعض يمارس سياسة التهويش التقليدية والسؤال هل ادرك الجميع ان تلك الحرب كانت حربهم وان رؤوسهم هي المستهدفة وليس الراس الفلسطيني سوى البداية؟

اذا كانت الاجابة بنعم فهذه كارثة مخيفة واذا كانت بلا فان خللا فظيعا يحتاج العقل العربي وسواء كانت تلك هي الكارثة بالفعل ام ذلك الخلل المستفحل ، فيبدو ان اسرائيل في سعيها لبسط سيطرتها الاقليمية على المنطقة ، هذه بعض دروس الحرب الاخيرة وبعض دروس مايجري في لبنان تعمل الان على تطوير مفهوم خاص وجديد لفكرة الحدود الامنة،واذا لم يكن جديدا فعلا كفكرة فقد ظهر منذ زمن بعيد فانه يبدو جديدا على صعيد بداية تنفيذه الا وهو العمل على احاطة اسرائيل لنفسها بمجموعة من الكيانات الطائفية التي تقوم فيها الدولة على اساس الطائفة وهذا ماتحاوله في لبنان ربما من اجل تقسيمه والفكرة لم تزل واردة جدا ، او من اجل خلق عداوات حقيقية بين الطوائف تؤدي الى انهيار فكرة الشعب المنصهر والى بروز فكرة الطائفة المتميزة اوالفريدة ..الخ .

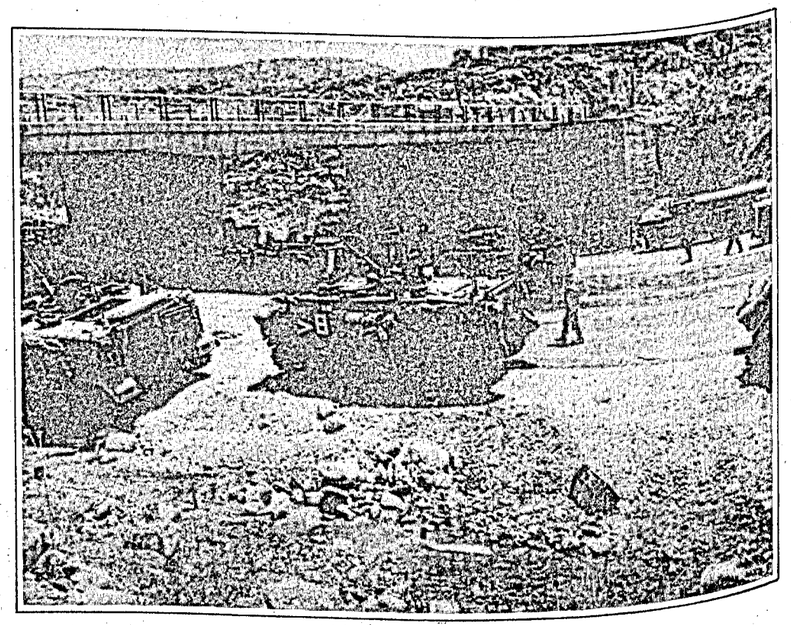

القوات الاسرائيليه في لبنان

ويرتبط بالفكرة السابقة فكرة اخرى تبدو مرعبة فعلا ما الذي يمنع اي طائفة في العالم العربي من الاستنجاد والتحالف مع الاسرائيليين مثلما فعلت اقسام كبيرة من المارونية السياسية في لبنان؟

وما الذي يمنع اسرائيل من تنصيب نفسها مدافعا حاميا للاقليات في المنطقة العربية؟

في منتصف السبعينات وصف الدكتور هنري كيسنجر وزير الخارجية الاميركية الاسبق العالم العربي بانه يشبه قطعة من الفسيفساء ويبدو الان ان « اسرائيل» تعمل على تفتيت قطعة الفسيفساء هذه من اجل تحطيمها والسيطرة عليها .

من السذاجة ان نتصور ان اسرائيل تريد انهاء الصراع العربي ــ الاسرائيلي فهي اعقل من ان تفكر في مسالة من هذا النوع ، لكنها تريد استثمار هذا الصراع كوسيلة في يدها لبسط سيطرتها المتدرجة : لان اسرائيل يستحيل ان تعيش بلا صراع هذه مسالة مرتبطة بنفسية المستوطن اليهودي الصهيوني وبرؤية الايديولوجية لنفسه وللاخرين وبالدور الذي اقيمت من اجله اسرائيل .

ان تبسط السيطرة الاقليمية الاسرائيلية يتطلب استمرار الصراع العربي ــ الاسرائيلي من اجل نهش قلب العالم العربي وزرعه بالسموم . المصارع الاسباني لا يطلب من الثور ان يستسلم بمجرد النزول الى الحلبة بل يزرع جسده بالسهام وفي ذلك متعة له وللمشاهدين يجب ان تكون المتعة والفائدة بمقدار مادفعوا من نقود .

ان بسط السيطرة الاسرائيلية يتطلب وهذه مسالة مؤكدة اكثر من حرب جديدة لكن المهم ليس الاستعداد للحروب الجديدة وحسب المهم هو اعادة تقييم المراحل كلها ، ومحاولة اكتشاف الخلل لتكون نتيجة حرب جديدة لصالحنا بعد عشرة سنوات؟

المهم هو التخطيط لمرحلة جديدة لاتدفعنا اليها « اسرائيل» بل نرسمها نحن بانفسنا ونحدد حدودها ، متى تبدا ومتى تنتهي .

والخلل ليس مسالة حسابات عسكرية مجردة وليس رفع شعارات سياسية مجردة انه اعمق من ذلك بكثير انه يتصل ببنية العقل بالدرجة الاساسية .

ان اعادة التقييم تبدو ضرورية ففي الحرب الاخيرة لم تنتفض الجماهير العربية محطمة الاسوار والحدود لنصرة الفلسطينيين ولم تجد الانظمة العربية صعوبة خاصة في خلق مبررات عدم التدخل لصالح الفلسطينيين كما ان شعارات الصمود والتصدي لم تثبت في سياق الاحداث وفي الاونة الاخيرة يجري التفاوض بين لبنان واسرائيل بدون تلك المظاهر التي رافقت رحلة السادات الى القدس واعقبتها مظاهر السخط والاستنكار التي عمت ارجاء المنطقة العربية .

لماذا كبيرة تنتصب في الذهن وذلك ليس بهدف الاتهام او الاستنكار ولكن بهدف المعرفة .

في حربها الاخيرة طرحت اسرائيل على العالم العربي شروط الاستسلام غير المشروط ربما ليس اكثر من هذا ولكن ليس اقل .

حسن خضر